ست الحزن

سما الشريفي

في منزل «جميلة» (تلك الحسناء الجميلة، التي تبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، بملامحها البريئة الرقيقة وجمالها الذي يسُرُّ الناظرين)

قامت بإعداد غرفة النوم بأجواء رومانسيه، وأطفأت الأنوار، ثم قامت بإضاءة الغرفة بالشموع ذات العطر الفوّاح، ووضعت ما لذ وطاب من الطعام علي الطاولة المستديرة التي توسطتْ غرفة النوم، وأرضعت طفلتها حتى نامت، ومن ثَمَّ وضعتها في فراشها الصغير ثم تزينت، وارتدت أشد قمصانها إثارة، وبعد أن أتمت كافة الترتيبات، جلست علي طرف سريرها تنتظر مجيء زوجها «خالد» ،ثم شردت قليلًا في حياتها قبل الزواج منذ ثلاثة أعوام :

حيث كانت من عائلة متوسطة الحال، عمل والدَيْها بمهنة التدريس، إلي أن جاءتهما إعارة للخارج، فذهب الأب أولاً لمدة سنة وكان يبعث لهم براتبه الشهري إلي أن جمعت الزوجة مبلغًا كبيرًا وقامت بشراء منزلًا جديدًا بالقرب منهم -بل كان المنزل الوحيد بجانب منزلهم فقد كان منزلهم في منطقة شبه منعزلة -كما كان معروضًا للبيع ولظروف خاصة قَبِلَ البائع بالمال وإن كان لا يفِ بثمن هذا المنزل الكبير.

وبعدها بشهرين فقط قام الزوج بإرسال تذكره إلى الزوجة للحاق به حيث استطاع أن يُوفر لها عملاً هناك، فتركت الزوجة «جميله» و «عليّ» (أخوها الوحيد يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا)ثم سافرت للعمل مع زوجها.

أصبحت الفتاة مسؤولة عن المنزل وهي في سن الخامسة والعشرين من عمرها، ومسؤولة أيضًا عن أخيها المراهق الذي يصغرها بست سنوات.

كانت تذهب إلى جامعتها ومن ثم تعود إلى المنزل فترتبه، وتقوم بجلي الأواني وتحضير الطعام، ثم تجلس منتظرة قدوم أخاها، الذي كان كثيرًا ما يتأخّر في عودته، وعندما كانت تسأله عن السبب كان يرد معللًا أن ذلك بسبب كثرة الدروس والمذاكرة.

مرّت الأيام عليها، كأنها تعيش نفس اليوم كل يوم، حتّى ذهبت في أحد الأيام إلى جامعتها، وعلى وجهها علامات الحزن والكآبة بسبب شعورها بالوحدة والغُربة بين جدران منزلها الجديد، وأيضًا خوفها علي أخيها، كم كانت تريد أن تلقي بنفسها في أحضان أمها، كم اشتاقت إلى والديها وإلى الاجتماع بهما؟ والذي قلَّما كان يحدث، لكنها اشتاقت حقًا لرؤيتهما، فقد مرَّت سنه علي رحيلهما، كان من المفترض أن يأخذا إجازة، لكنهما تعللًا بكثرة الأشغال، ولم يكلفا نفسيهما مشقة العودة لرؤية أولادهما والذهاب، كم كانت تشعر بالخزي عندما أخبراها بعدم قدومهما، ونظرًا لحزنها لم تحضر أي من محاضراتها حيث جلست في حديقة الجامعة، شاردة الذهن، تلمع الدموع بعينيها، وبينما هي شاردة غير منتبهة إلى من يجلس بجوارها، هبطت دموعها الصامتة بلا أدنى إنذار، فشعرت بيد تمسح دموعها، ثم رفعت عينيها لتتلاقى مع عينيه العاشقة المُحبة، كم كانت تريده أن يضمها، هي حقًا لا تعرفه، لكن يكفيها ما تراه في عينيه من خوف عليها وحب لها، وبينما كان هو يبادلها النظرات بحنو وإشفاق، كانت هي تنظر له بنظره يملؤها الحزن، وكأن هناك حديثًا صامتًا أبلغ من أي كلام سيُقال .

ظلا هكذا علي حالتهم لفترة ليست بقليلة إلى أن قطع الرجل هذا الصمت

قائلًا:

- مرحبًا اسمي خالد

قالها وهو يمدّ لها يده بالسلام

فوضعت يدها في يده بتأني وردت

- مرحبًا، أنا جميلة.

- أعرف.

قالها بثقة مثبتًا نظراته عليها ليقرأ تعبيراتها .

- كيف هذا وأنا لا اعتقد أني التقيت بك من قبل؟!

- ولكني ألتقي بكِ كل يوم.

قالها وعيونه تلمع شوقًا !!!

- ماذا؟!

قالتها بدهشة ثم أتبعتها بابتسامه خفيفة:

- أتلتقي بي في غيابي؟!

نظر لها بكل ثقة قائلًا:

- نعم.

ثم صمت قليلًا مستمتعًا بدهشتها الطفولية واسترسل قائلًا:

- كل يوم بعد انتهاء محاضراتك، يجلس جسدك هنا في هذا المقعد.

فال هذا مشيرًا إلى المقعد الذي يجلسان عليه وأتبع :

- لكن عقلك ليس هنا.

وهنا نظرت إليه مطولًا ثم قالت :

- وكيف عرفت؟

أجاب سريعًا:

- لأني أُراقبك.

تراقبني؟! .. لماذا؟

- لأني أحبك منذ أن رأيتك جالسه هنا لأول مره.. وقعت في أسر عينيكِ الجميلتين اللّتين تحملان حزنًا لا يليق بهما.. أردت كثيرًا أن آتي إليك لأعرف ما الذي يحزنك لهذا الحد، لكن احترامي لعزلتك وجلوسك في هذا المكان البعيد عن الأنظار هو ما جعلني أُراقبكِ من بعيد) قالها مشيرًا إلى المكان حولهما حيث كانت تجلس علي مقعد خلف شجرة كبيرة بعيدة بعض الشيء عن باقي الحديقة ولا يأتي إليها الكثير من الطلاب.

كم كانت جميلة ممتنة لحديثه ولاهتمامه؛ وكم أغدقها بالحب والحنان الذي افتقدته من والديها.

وبمرور الوقت تطورت علاقتهما، وعرف كل شيء عنها وعن حياتها، وكان الأقرب إليها من بين الجميع والأحب إلي قلبها حتى من أخيها الذي باتت تصرفاته غريبة مؤخرًا، مما جعلها تشك في أمره وتقرر مراقبته.

حيث اتسعت عيناها من الصدمة حينما وجدته يدخل أحد الملاهي الليلية، وكأنه أحد الزُوّار الدائمين لها، فقد كان معروفًا من قبل الجميع، وأخذت تسأل نفسها كيف يمكن لشاب في التاسعة عشر من العمر أن يرتاد مثل هذه الأماكن، أخذت توبخ نفسها بشدة، كيف غفلت عنه هي الأخرى،

أما يكفيه عدم وجود أب يرشده وهو مازال مراهقًا، أو أمًا تصاحبه وتحنو عليه، أرادت الدخول وجلبه من الداخل لكنها خافت بشدة من المكان، فقررت الرجوع إلي البيت، وعزمت علي مواجهته عند عودته.

وعندما عادت إلى البيت ظلت تبكي بسبب ضياع أخيها وقسوة والديها، ظلت تسب وتلعن المال الذي سبب لهما كل هذا الشقاء، كم أرادت احتضان أخاها وتعويضه عن وجود الأم، لكن كيف السبيل إلي شاب تمرد علي كل شيء، وأصبح يمقت أباه وأمه اللذيْن تركاه وأخته بمفردهما لمدة سنتين كاملتين ولم يأتيا لرؤيتهما ولو ليوم واحد فقط، تذكرت ثورته عليها منذ أيام حينما سألته عن سبب تأخيره الذي أصبح زائدًا، فقال لها بصوت مرتفع يشوبه الغضب:

- إن أبي وأمي سافرا لكي يجلبا لنا المال، لكي نسعد في حياتنا، ولئلا نحتاج لمساعدة أحد (وتابع بسخرية) أليس هذا ما قالته أمي العزيزة الغالية مُبررةً عدم مجيئهما، لذا من فضلك فلتكوني سعيدة بطريقتك، واتركيني بحالي، لأسعد نفسي بطريقتي، لم أعد صَغيرًا الآن، ولست بحاجه ليكون أحدهم واصٍ عليّ.

وتذكرت حينما أخبرت والدتها بما قاله أخوها وأنها خائفة جدًا عليه فكان ردها حين ذاك:

- لا تقلقي حبيبتي، سيكون بخير.

كم شعرت بالغرابة من هذه المرأة، كيف لهذه أن تكون والدتهما الحنون ذات القلب الطيب التي تخشى علي أولادها من الهواء الطائر نحّت أفكارها جانبًا وقالت بترجي:

- أمي من فضلك فلتأخذي إجازة ولتأتي إلينا أو ليأتي أبي فنحن بحاجة إليكما.

فردت الأم بفتور:

- لا تقلقي عزيزتي أؤكد لكِ بأننا سنأتي الإجازة القادمة.

حين ذاك شعرت بأن دلوًا من الماء البارد سُكب علي رأسها، فأغلقت الهاتف وانهارت في البكاء لولا وجود خالد بجانبها وتهدئتها، ففي ذلك اليوم ظل معها علي الهاتف إلى أن نامت .

لكنها استيقظت فزعه علي صوت طرقات الباب، فبدلت ثيابها سريعًا وذهبت لتفتحه، وإذا بها تجد أخاها محملًا علي يدي اثنين من أصدقائه اللذَيْن رأتهما معه مره أو مرتين، أخذت تدور بعينيها فيما بينهما وتنظر لأخيها، الذي يبدو كالأموات...

استفاقت من شرودها على الهاتف القابع في يدها، تريد إغلاقه في وجه والدتها، لكن ليس قبل أن تقتص لوجعها وآلمها.

- ابنتي، أين ذهبتِ؟

قالتها الأم متسائلة.

فردت بغضب بالغ:

- لست ابنتك، لا أعلم من أنتِ، أنتِ عارٌ علي النساء، لا تستحقين أن تسمعي كلمة أمي، سنتان .. سنتان كاملتان ولم يدق قلبكِ شغفًا أو شوقًا لرؤيتنا، أخبرتك مرارًا وتكرارًا إننا بحاجتك، لكنك لم تحركِ ساكنًا، أكرهك، أكرهك بشدة كما لم أكره أحدًا من قبل.

كانت تتحدث وصوتها يعلو بالبكاء، وعلي الرغم من أن خالدًا كان

يسمعها إلا أنه أرادها أن تخرج كل ما في جعبتها من هموم وأوجاع، لذلك قرر عدم التدخل؛ بينما تقطع قلب الأم من هذه الكلمات وقالت بهلع:

- ماذا حدث لكل هذا ؟!

ردت بسخرية من بين بكائها:

- اليوم تسألينني ماذا حدث، لا شيء أمي العزيزة، فقط مات أخي عقب تناوله لجرعة زائدة من الهروين، وأنا مازلت علي قيد الحياة أتنفس، لكن الحياة قد انسحبت مني بموته، فأصبحت أحيا كالأموات والشعور بالذنب يقتلني، حتى زوجي لا أستطيع أن أكون الزوجة المناسبة له، فقلبي بات يخشي الفراق، أخاف فقدانه بالموت مثلما فقدت أخي، وأخاف فقدانه وهو علي قيد الحياة مثلما فقدتكما.

لم تسمع صوتًا علي الطرف الآخر غير صوت شيء وقع وارتطم بالأرض بقوة، وبعدها سمعت صوت والدها ينادي «علياء» ويظهر علي صوته الهلع، لكنها لم تبالِ، ثم قامت بإغلاق الهاتف وأجهشت بالبكاء، بينما جاءها هو من الخلف واحتضنها بشدة، وبعد هذا اليوم مرّت أيام كثيرة شِبه بعضها، كانت كثيرًا ما تبكي علي الرغم من محاولاته المستميتة لإسعادها.

مرت سنه علي زواجها منه، وفي نهاية هذه السنة رزقها الله بطفلة منه آية في الجمال فقامت بتسميتها «حياة»، وكانت حياةً فعلًا. حيث استطاعت رسم البسمة علي شفاهها من جديد، وكسرت الجليد الذي كونته علي قلبها، من قال أن فاقد الشيء لا يعطه مخطئًا، لأن فاقد الشيء يعطيه بسخاء، فمنذُ ذلك اليوم، أقسمت أن تكون نعم الأم لابنتها، ونعم الزوجة لهذا الرجل الذي لم يتركها رغم فقدانها لرونقها، ورغم قسوة كلامها، وخوفها المستمر، وكان كثيرًا ما يطمئنها .

بعد ولادتها «لطفلتها» بثلاثة شهور جاءها جواب من الخارج، ففتحته وإذا بها تفاجأ من محتواه، (أن والدتها قد توفيت بعد أسبوع من وفاة أخيها، وأن أباها لازم فراش المستشفى لمدة ستة أشهر حزنًا على ابنه وزوجته، كان كل ما يريده هو رؤيتها، لكنها قطعت كل الطرق التي توصلها بهم، واختتم الجواب بوفاة أبيها منذ أسبوع، وأن آخر ما لفظه هو سامحاني، سامحني بني لقد أضعتك، سامحيني ابنتي، أرجوكِ)؛ كان الجواب مرسلًا من صديق لوالدها بالخارج، ومعه ورقه صغيرها يخبرها فيها بأن تأتي قبل نهاية هذا الشهر لتستلم إرثها الذي تركه والدها، وأنه في حالة عدم مجيئها سيذهب هذا الإرث إلى دور الأيتام والمُسنّين.

بكت كثيرًا كما لم تبكِ من قبل، فقد أصبحت اليوم يتيمة فعلًا، بكت خوفًا على والديها من العذاب .. اللذَيْن غرتهما الحياة الدنيا بزينتها الزائفة، فمهما ادّعت القسوة، فقلبها لا يستطيع كرههما.

عزمت أمرها علي ألّا تذهب لأخذ المال، لعله عندما يذهب لدور الأيتام والعجزة يشفع لهما ولو قليلًا عند الله، ويتقبله الله في ميزان حسناتهما.

قررت أن تنسي ما فات فقد أرهقت مشاعرها كثيرًا، قررت الحفاظ علي بيتها وزوجها، وألا تعطي الفرصة لخوفها مرة ثانية أن يمنعها من أن تعيش سعيدة مع هذا الزوج الذي عوضها الله به .

فاقت من شرودها علي صوت فتح الباب، نظرت إلى ساعة الحائط فإذا بها الثانية عشر، (أمعقول جلست لثلاث ساعات متواصلة هكذا) قالتها بدهشة، ثم قامت واتجهت إلى باب الغرفة لتفتحه، فإذا بزوجها يفتحه ويقف متسمرًا عند بابها، ليراها بأبهى وأجمل حالتها، كما لم يرها من قبل، فقال لها بمُزاح:

- أهذه شقة خالد المصري؟

كانت في قمة ارتباكها وخجلها، لم ترد عليه، وأخذت تشد في طرف قميصها، وهي تقول لنفسها:

- ألست أنتِ من قررتِ ذلك، فلتتشجعي يا فتاة، إنه زوجك، لا داعي للخجل.

تفاجأت به يردّ كلمتها:

- أجل، ورب السماء أنا زوجك يا فتاة.

فوضعت يدها علي شفتيها بتلقائية، لم تكن تدري أنها تفوهت بما تفكر به، اقترب منها ببطء، واحتضنها، وعندما همّ ليقبلها بدأت الصغيرة بالبكاء، فارتد للخلف وقال بضيق مصطنع:

- أعلم حبيبتي إنكِ موجودة، فلا داعي للبكاء، فلتغلقي عينكِ قليلًا أرجوكِ، أريد أن أخبر والدتكِ سرًا.

انفجرت هي بالضحك من طريقة حديثه، فنظر لها بحنق وقال:

- أسعيدة أنتِ الآن؟

طوقت رقبته بذراعيها ونظرت إلي عينيه ثم قالت بهيام:

- نعم سعيدة جدًا، فكيف لي ألا أكون سعيدة ولِي زوج مثلك .

- أهناك من لعب بجيناتك يا فتاة، ما هذه الرومانسية، سوف أموتُ منكِ قريبًا بسكتة قلبية.

قالها واضعًا يده علي قلبه بطريقة دراميّة؛ فوضعت يدها علي يده قائلة:

- حفظك الله لي دائمًا وأبدًا يا حبيب قلبي.

اقترب منها، لتزداد الصغيرة بكاءً فقال:

- يا الله منكِ ستقتلينني، ألا يمكنك الهدوء قليلًا يا فتاة.

فطبعت قبلة علي خده الأيمن وقالت:

- فقط خمس دقائق سأرضعها، وآتي إليك سريعًا.

قالتها وهمّت بالرحيل، لكنه أمسكها من يدها وجذبها إليه قائلًا:

- ليس قبل أن آخذ قُبلتي.

وقبلها قبله رقيقه، شغوفة، تحمل الكثير والكثير من الشوق والحب.

أخيرًا: أكرموا من تحبون بكلمات جميلة، وأفعال أجمل، واعلموا أن أرواحنا خُلقت لفترة من الزمن وسترحل، فابتسموا وتناسوا أوجاعكم، فهي دنيا وليست جنه.

تمت بحمد الله....